المرأة كما يراها شوبنهور

للأستاذ زكي نجيب محمود

إن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضطلع بجليل الأعمال — الجسمى منها والعقلى على السواء ، وإن رسالتها فى الحياة لتنحصر فى الانسال وتعهد الأطفال ، مع وجوب طاعتها للرجل وخضوعها له ؛ فقد شاءت لها الطبيعة أن تسلك فى حياتها سبيلا هادئا مطمئنا وادعا ، لا تصادف فيه ما يصادفه الرجل فى حياته من التطرف فى اللذة والألم كليهما — وإذا كانت الحياة قد ركنت الى المرأة فى أداء هذه الرسالة الكبرى ، وأرادت بها أن تكون أداة لتربية النشء فى مدارج الطفولة الباكرة ، فقد أعدتها أعدادا عقليا يلائم الغرض من وجودها ، فجاءت ضعيفة العقل قصيرة النظر ، حتى لكأنها طفل كبير ، لكى يتم بينها وبين أطفالها شىء من التناسق والانسجام ، أو إن شئت فقل إنها مرحلة عقلية متوسطة بين الطفولة والرجولة ، فالرجل هو الكائن البشرى الحق الذى قصدت اليه الحياة

عرفت الطبيعة فى المرأة ضعفها فوهبتها الجمال تفزو به أفئدة الرجال لينهض هؤلاء بعبئها عن رضى وطواعية ، ولكن الطبيعة فى عطائها كانت كمهدنا بها مقترة مغلولة اليد ، فلم تهب المرأة من الجمال إلا بمقدار ما تستطيع أن تتخذ منه أداة لحفز الرجل على التناسل ليستمر البقاء ، حتى إذا ما انقضت مهمتها فى ذلك عادت الحياة فسلبتها ما كانت وهبتها من فتنة وجمال ، وتركتها ذابلة ذاوية تنعى شبابها المفقود ... وإن الفتاة مهما اشتملت حماسة لحريتها ، واصطنعت لنفسها مهن الرجال ، لتشعر فى أعماق نفسها أنها ما خلقت إلا للمعركة الجنسية ، تتوسل لها بالحب وما يتصل به من تزين ودلال

ومما يلاحظ أنه كلما ارتقى الكائن الحى فى سلم الكمال كان أبطأ وصولا الى مرتبة النضوج ، فبينما المرأة تكتمل نضوجها العقلى فى سن الثامنة عشرة ، ترى الرجل لا يكاد يبلغ نهاية هذا النضوج إلا بعد الثامنة والعشرين ، على أن المرأة لا تدرك من القوة العقلية إلا حدا ضئيلا لا يمكنها من أن تنفذ الى حقائق الأشياء ، ولذا يسهل انخداعها بالظواهر الباطلة ، كما أنها كثيرا ما تتعلق بتوافه الأمور دون الهام منها والخطير ؛ كذلك تتميز المرأة بأنها تعيش فى حاضرها فقط ، نظرا لعجزها عن أن تنفذ بفكرها الى الماضى أو المستقبل ، فبالقوة العقلية وحدها يستطيع الرجل أن يحطم حدود الزمن التى تقيد المرأة كما تقيد الحيوان الأعجم ، فيرسل بصره إلى الأفق النائى البعيد ، ويضم فى نفسه أطراف الزمان من الأزل الى الأبد ؛ ولعل هذه الخاصة هى التى يتميز بها الرجل دون المرأة ، وأعنى بها النظر الشامل العميق ، هى العلة فيما يلاحظ عليه من هم وانقباض كثيرا ما يغلبان عليه — حتى ينسياه ما قد يحيط به من عوامل الهناءة والسرور . أما المرأة فهى تنعم بضعفها العقلى لأنها تلهو يومئذ يومها غير حافلة بما يأتى به الغد من ويلات وكوارث . فهى فى ذلك كالحيوان الأجهر (ضعيف البصر) الذى يرى ما هو قريب منه فى وضوح وجلاء ، ولكن بصره لا يمتد الى أبعد من أنفه ؛ أى أنها قد تستطيع أن ترى الحوادث الحاضرة أدق مما يراها الرجل ، ولكنها عاجزة كل العجز عن اجتياز حاضرها الى ماضيها ومستقبلها ، وربما كان هذا النظر الضيق المحدود هو الذى دفع المرأة إلى ما تتصف به عادة من إسراف قد يصل إلى حد الحماقة والجنون ؛ — فهى تريد أن تنعم « الآن » وليأت بعد ذلك الطوفان ! ولكن اشتغال المرأة بحاضرها واستمتاعها بذائذ يومها لا يخلو من حكمة بالغة ، لأن ذلك يكسبها مرحا وابتهاجا بالحياة يمكنانها من القيام بواجبها الخطير نحو الرجل ، وهو الترويح عن نفسه مما يعانيه من شقاء وعناء ، فما أكثر ما تكون المرأة جنة فيحاء تزيل بسحرها عن كاهل الرجل التعب المضنى عبء الهم الثقيل

ولكن لا ينبغى أن يتيه الرجل بما أوتى من العقل فلا يصغى لرأيها ولا يحفل بما تقول ، بل خير له إذا ما حزب الأمر واشتد الخطر أن يستشيرها الرأى ويستهديها السبيل ، وذلك لأن طريقة المرأة فى فهم الأشياء تخالف طريقة الرجل كل المخالفة ، فهى — تحب بطبعها أن تسلك أخصر الطرق التى تؤدى إلى الغاية المقصودة ، هذا فضلا عن مقدرتها على رؤية القريب بسبب ضعف قواها العقلية الذى أشرنا اليه ، فهى بذلك قد تلفت نظر الرجل إلى ما يغفل عن إدراكه لقربه منه ، إذ هو كما قدمنا مفطور بطبعه على النظر البعيد ؛ أضف إلى ذلك أن المرأة ألصق بالحقائق الواقعة فترى الحوادث كما هى لا تضيف اليها ولا تنقص منها ، أما الرجل فاذا ما اضطرمت عواطفه ، انطلق خياله يهول فى الأمر

ويزيد عليه فتضيع الحقيقة فى ثنايا الأوهام ويستحيل عليه التفكير السليم

وقد كان هذا الضعف العقلى الذى تتميز به المرأة قيداً حصرها فى دائرة الحقائق والوقائع المحسوسة دون أن تكلف نفسها مؤونة التفكير المطلق المجرد ، فنتج عن هذا شدة عطفها على البائسين وحدبها على الأشقياء ، لأنها لا ترى من حقائق الكون إلا هذه الحقائق الجزئية التى تراها وتلمسها ؛ وليس فى مقدورها أن تنظر إلى العالم كله وحدة متصلة وحقيقة واحدة ينمحى فى خضمه المتلاطم كل ما فيه من بؤس الأفراد وشقائهم ، ولكن إن كان هذا النظر الراقى المحدود قد أكسب المرأة عطفها الجميل ، فقد جنح بها كذلك إلى ألأم الطباع وأحسها ، فهى أبعد ما يكون الانسان عن العدل والشرف ويقظة الضمير وما اليها من الصفات الخلقية التى لا تستساغ إلا بالنظر المجرد العميق ، وقد ألجأها ما أحسته فى نفسها من ضعف إلى أساليب المكر والختل والخداع ، فهيهات أن تجد بين النساء امرأة واحدة قد خلص طبعها من الخيانة والغدر والكذب ؛ فهذه هى عدتها التى وهبتها إياها الطبيعة لتدافع بها عن كيانها ووجودها كما أمدت الضوارى بالمخالب والأنياب ، فليس لدى المرأة من عتاد تدرأ به عن نفسها ما يتهددها من خطر إلا المكر والخداع ، لا فرق فى ذلك بين امرأة وامرأة ، وهى تلجأ إلى هذا السلاح الفكرى فى كل ظرف دون أن تشعر أنها ترتكب بذلك ما يناقض فضيلة أو شرعاً ، بل إنها على نقيض ذلك تعتقد أنها إنما تستخدم قوة طبيعية فيها لها كل الحق فى استخدامها كما يستعين الأسد بمخالبه ساعة الخطر ؛ ولما كان الخداع مفطوراً فى دماء النساء كُنَّ أقدر من الرجل على إدراك خداع الناس . ولذلك كان من الغفلة والبلاهة أن يحاول الرجل خداع المرأة لأنها فى هذا الميدان فارسة لا يشق لها غبار . ولقد نشأ من هذا الجانب فى النساء ميل غريزى إلى العقوق والخيانة وتكران الجميل ؛ وما أهون على المرأة أن تحنث فى يمينها ، وما أيسر عليها أن تمتد يدها الى السرقة حتى ولو لم تكن فى حاجة الى ما تسرقه

لقد اتخذت الحياة من المرأة وسيلة للتعبير عن إرادتها فى البقاء ، وإن المرأة لتعلم فى أعماقها أنها خلقت لحياة النوع قبل أن تخلق لشخصها ، ولقد تراها تسمى جهدها لأداء واجبها الأول نحو النوع وإن تعارض ذلك مع واجبها نحو الرجل الذى يتعهدها ويرعاها ، فهى تأبى مثلا إلا أن تلد وترضع وتربى مهما كلفها ذلك من عناء ؛ وهنا تختلف المرأة عن الرجل اختلافاً جوهريا ، فبينما هى تتوفر لخدمة النوع وبقائه ، ترى الرجل لا ينصرف بمجهوده إلا لبقاء شخصه ؛ أعنى أن المرأة خلقت وسيلة لبقاء النوع ، أما الرجل فهو غاية فى حد ذاته — ومن هذا الفارق بين الجنسين تفرع وجه اختلاف آخر بينهما : فالرجال لا يكاد يعضهم يأبه ببعض ، بل كل منهم منصرف الى سبيله لا يحفل بغيره ، وذلك لبعد ما بين أعمالهم من تباين وخلاف ؛ أما النساء فبينهن عداوة غريزية فلا يسع الواحدة منهن إلا أن تضمر فى نفسها أشد المقت لغيرها من بنات جنسها . وعلة ذلك أنهن جميعا قد خلقن لعمل واحد هو حفظ بقاء النوع ، فكان ذلك مدعاة للغيرة والكيد والتنافس ؛ فانظر مثلا إلى سيدتين تقابلتا فى الطريق كيف تنظر إحداهما الى الأخرى بعين كلها الغل والكراهية ؛ وإنه لما يبعثك على الضحك أن تستمع إلى امرأتين تتعارفان أو تتبادلان تحية اللقاء أو الوداع ، فلن ترى إلا سخفاً متشوه أن التودد والتعاطف والمحبة ليست من طبيعة المرأة نحو المرأة ، وأن هذه العداوة الفطرية بينهن لتتضح لك فى جلاء إذا رأيت كيف تعامل المرأة الارستقراطية من هى دونها فى المنزلة الاجتماعية من النساء ؛ عندئذ ترى صلفا أى صلف وغطرسة وكبرياء ، لماذا ؟ لأنها تشعر أن الفارق بينهما فى حقيقة الأمر جد ضئيل . استغفر الله بل إنه لا فارق ألبتة بين امرأتين . فهذه تحفظ النوع بنسلها كما تحفظه تلك سواء بسواء ؛ ولعمرى أن الحياة لم تقصد بهن إلا هذا ، وهذا وحده . تشعر المرأة الأرستقراطية بانعدام التفاوت فى الجوهر بينها وبين المرأة الوضيعة فتلجأ إلى الصناعة والتكلف تخلق بهما ما تريد هى أن يكون بين المرأتين من تفاضل ؛ أما الرجل فتراه على النقيض من ذلك : يعامل من دونه بالحسنى ، لأنه يعلم أن الطبيعة قد فرقت بينهما فى القوة والعمل ، فليس به لاظهار منزلته حاجة إلى الصلف والكبرياء

ولشد ما أعجب لهذا الاسم الذى يطلق على النساء جزافاً : (الجنس اللطيف) ؛ ولست أشك أن من أطلق هذا اللقب على ذلك الجنس الضئيل القصير الشائه ، هم أولئك الذين أفسدت غرائزهم الجنسية عقولهم . فجمال المرأة كله قائم على الغريزة الجنسية وحدها ، وإنه لأقرب الى الصواب أن نسمى النساء بالجنس الذى لا ذوق له ولا فن ، إذ ليس فى مقدورهن تقدير الجمال فى شتى

الفنون ، ولـكنهن كثيراً ما يغالطن فى الحقائق فيدعين أنهن ذوات فن جميل ، بأن يعزفن على الآلات الموسيقية أو يعالجن التصوير ، ولـكن ذلك منهن كذب ورياء ، فهن لا يُشتقن إلا بما خلقن من أجله : حفظ النوع ... ... إن الرجل يجاهد فى العلوم والفنون لتتم له السيطرة على الأشياء ، إما بفهمها أو بالتحكم فيها ، أما المرأة فهى بطبيعتها لا تحب أن تسيطر على الأشياء سيطرة مباشرة ، ولـكنها دائماً تقصد الى السيادة على الأشياء عن طريق سيادتها على الرجل ، فالرجل وحده هو ما تصبو المرأة الى التحكم فيه والسيطرة عليه — ومعنى ذلك بعبارة أخرى — أن المرأة ترى فى كل شىء وسيلة فقط لغزو الرجل ، فاذا ما تظاهرت بميل الى الموسيقى أو الشعر مثلاً فليس ذلك ناشئاً عن رغبة طبيعية فيها نحو هذه الفنون ، إنما هى تتخذ منها أداة تتجمل بها لتروق فى عين الرجل . وما أصدق روسو حين قال : « إن النساء بصفة عامة لا يحببن الفنون ولا يعرفنها ، ومحال أن يبلغن فيها حد النبوغ » وهل تريد دليلاً على نفورهن من الفنون الرفيعة أقطع من هذا الذى تراه فى دور التمثيل ؟ أنظر اليهن كيف يواصلن الحديث فى أتفه الكلام ، معرضات عما قد يكون على المسرح من أروع آيات الفن ! ولئن صدق ما يقال من أن الاغريق لم يسمحوا لنسائهم بمشاهدة تمثيل المآسى ، فو الله لقد أصابوا ... ثم استعرض التاريخ وحدثنى كم من النساء قد أبدع فى الفن آية فيها الأصالة والنبوغ ؟ ؟

ولقد شاءت الطبيعة للمرأة أن تثير فى الرجل أحط جوانبه ، فهى لا تنفذ إلى الرجل من ناحية عقله وهو مظهر قوته وسيادته ولـكنها تأتيه من نواحى ضعفه وجبونه . فيجمل بالرجل أن يتخلص من ضعفها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، أما أن يكرمها ويرفع من قدرها فذلك ما أعجب له أشد العجب ! إن إكرامك المرأة واحترامك لها انحطاط لك فى عينها ، لأنها تدرك بفطرتها أنها أحط من الرجل وأضعف . فلا يضعها فى غير موضعها إلا الضعيف العاجز — المرأة يجب أن تكون أماً فيجب ألا نعد بناتنا إلا لهذا مع تدريبهن على طاعة الرجل وقسرهن على الخضوع ؛ وفى ذلك يقول برون الشاعر الانجليزى « على النساء أن يعتنين بالمنزل ، وعلينا أن نحسن لهن فى الطعام واللباس ، ولـكن لا يجوز لهن مخالطة المجتمع ، فان تعلمن شيئاً فليكن ذلك هو الدين ، على شريطة ألا يطالعن شعراً ولا سياسة ، وألا يقرأن إلا كتب العبادة والطبخ »

إن كل قانون للزواج يعامل المرأة على أساس مساواتها بالرجل باطل من أوله ، فاذا أراد القانون أن يسويها فى الحقوق بالرجال فليعطها أولاً عقلاً كعقول الرجال ! ومع ذلك فتأبى سخرية القدر إلا أن تمانى المرأة نفسها ما وراء المساواة من وخيم العواقب ، لأنه كلما جارت القوانين على الرجل وأجحفت بسيادته الطبيعية على المرأة وطالبته بأن يقف منها موقف الند للند ، أعرض الرجل ونفر ، فليس من الهين عليه أن يقوم على مثل هذه التضحية وأن يطوح بما أوتيه من قوة وسيادة ، وبذلك الاعراض يزداد عدد النساء غير المتزوجات اللواتى قد يدفعهن الفقر والحاجة اما إلى عمل لا يتفق مع طبيعتهن ، وإما إلى السقوط فى هاوية الفساد ، وعندئذ تكون الطامة الكبرى . ويستطرد شوبنهور فى استحسان تعدد الزوجات وفى وجوب عدم توريث المرأة مال زوجها لأنها مسرفة بطبعها ، وقد نشأ إسرافها من تعلق أطماعها بالأشياء المادية فتراها تبذل بغير حساب فى تجملها وزينتها ، وهى فى ذلك مخالفة للرجل الذى يتوجه بطموحه إلى نواح غير مادية كالعلم والشجاعة وما إليهما ، فهو يستنفد مجهوده فيما لا يحتاج إلى البذل والاسراف

يقول أرسطو فى كتاب « السياسة » : إنه إذا سمح للمرأة بالزيادة من حقوقها كان ذلك نذيرا بزوال الدولة ودمارها ، وهو يستشهد على ذلك بأسبرطة . ولقد جاء التاريخ الحديث بأمثلة كثيرة تؤيد ما ذهب اليه ذلك الفيلسوف العظيم ، فزيادة نفوذ المرأة فى فرنسا منذ عهد لويس الثالث عشر أدى الى تدهور الحكومة والبلاط ، وهذا بدوره أنتج الثورة الفرنسية الكبرى وما أعقبها من ثورات

وشر شاهد من أهلها

لقد عرضت على القراء آراء شوبنهور فى المرأة بمناسبة ما قرأته فى إحدى الصحف الانجليزية لسيدة تنكر على المرأة حقها فى الحرية ، قائلة إن الحرية تستتبع التفكير والمسئولية وهما ضد طبائع المرأة التى خلقت لتستعبد لشخص ما : زوجها أو طفلها . وهى تؤيد قولها بأنصع الأدلة وأقوى الحجج ، وتروى لنا أنها كانت تحاضر فى ناد نسوى فسألت الحاضرات : لو لم تكونى من بنات هذا القرن فأى زمن تختارين ؟ فأجابتها فتاة ذكية : كنت أحب أن أعيش فى أى عصر لا يتطلب من المرأة التفكير ! !

زكى نجيب محمود